التوسط في الخطاب الديني
وأثره على السلم الاجتماعي

إعداد

الدكتور محمد مطلق عساف/قسم الفقه والتشريع / كلية الدعوة وأصول الدين/جامعة القدس/فلسطين

بحث مقدم إلى:

مؤتمر كلية الشريعة الدولي الثاني بعنوان: (السلم الاجتماعي من منظور إسلامي)

كلية الشريعة، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين

1433هـ/2012م

التوسط في الخطاب الديني وأثره على السلم الاجتماعي

د . محمد مطلق عساف

الملخص

يتناول هذا البحث موضوع التوسط في الخطاب الديني وأثره على السلم الاجتماعي، فيبدأ ببيان المعنى اللغوي والاصطلاحي للتوسط والوسطية بشكل عام، ثم معنى توسط الخطاب الديني بشكل خاص، ويبين أن الخطاب الديني يجب أن يخلو من كل مظاهر الإفراط والغلو، كالغلظة في القول، والخشونة في الأسلوب، والتعصب للرأي، وعدم الاعتراف بالرأي الآخر، والتزام التشديد مع قيام موجبات التيسير، واتهام الآخرين بناء على سوء الظن بهم، أو التفتيش عن عيوبهم، وعدم التماس العذر لهم.

كما يبين البحث أن الخطاب الديني لا يصح أن يمثل صورة من صور التفريط والانفلات، ولا أن يتأثر بباعث من بواعث التفريط، كالخوف أو الكسل أو ضعف الإيمان أو اتباع الشهوات ووساوس الشيطان أو الجهل بالدين أو الانجرار وراء شبهات المفسدين.

ثم ينتقل البحث بعد ذلك إلى بيان أسباب ابتعاد الخطاب الديني عن التوسط، سواء ما يتعلق منها بالشخص نفسه، أو ما يتعلق بأساليب الأعداء لتفجير الناس عن الدين.

كما يتناول البحث بيان ما يترتب على الابتعاد عن التوسط في الخطاب الديني من آثار سيئة في المجتمع، كالتفرق والتنازع والتوتر والفشل، ويوصي ببعض ما يجب عمله من أجل العودة إلى توسط الخطاب الديني لتوطيد السلم الاجتماعي في المجتمع.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله المرسلين، نبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وعلى من اختط سبيله وارتضى منهجه إلى يوم يلقاه، أما بعد، فإن السلم الاجتماعي لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان الخطاب الديني في المجتمع يتسم بالتوسط، والخطاب الديني قد يطلق ويراد به الأحكام الشرعية التي هي خطاب الشارع نفسه، وقد يطلق ويراد به سلوك الخطيب ووسائله وأساليبه لتوصيل تلك الأحكام، فإذا كان بمعنى الأحكام الشرعية التي خاطب الشارع بها المكلفين، فهو خطاب يمتاز بالتوسط في أصله، ولا يقبل من أحد أن يغيره بحجة إضفاء التوسط عليه.

وأما إذا كان الخطاب الديني بمعنى سلوك الخطيب والوسائل والأساليب التي يستخدمها لإيصال الأفكار، فهنا يكون معنى التوسط الذي يجب أن يقوم عليه الخطاب الديني هو أن يلتزم صاحبه

بالأسلوب المهذب والخلق الرفيع والتواضع الجم والفهم الصحيح للنصوص والبعد عن التعصب والعنصرية.

وهذا البحث يتناول بيان العلاقة بين السلم الاجتماعي وتوسط الخطاب الديني، ويوضح أن توطيد السلم الاجتماعي في المجتمع يتوقف على ابتعاد الخطاب الديني عن كل صور الإفراط والتفريط، كما يبين أسباب وآثار ابتعاد الخطاب الديني عن التوسط، ويؤكد على ضرورة العودة إلى توسط الخطاب الديني من خلال معالجة أسباب ابتعاد ذلك الخطاب عن التوسط؛ لأن معالجة الأسباب هي في حد ذاتها وقاية من الآثار والنتائج السيئة التي تترتب على الابتعاد عن التوسط، وتؤدي إلى حرمان المجتمع من السلم الاجتماعي، فمعالجة الأسباب تؤدي إلى العودة للتوسط الذي يحقق السلم الاجتماعي، ويُنهي التفرق والتنازع والافتتال، ويحمي المجتمع من الهلاك والفشل والدمار. وقد اعتمدت في كتابة هذا البحث على المنهج الوصفي، مع الاستعانة بالمنهجين الاستنباطي والاستقرائي.

وقد تم تقسيمه إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:
المبحث الأول: معنى التوسط ولزومه في الخطاب الديني لتحقيق السلم الاجتماعي، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى التوسط لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: المقصود بالخطاب الديني وتوسطه.

المطلب الثالث: معنى السلم الاجتماعي وعلاقته بتوسط الخطاب الديني.

المبحث الثاني: لا إفراط ولا تفريط في الخطاب الديني، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: خلو الخطاب الديني من كل مظاهر الإفراط والغلو.

المطلب الثاني: ابتعاد الخطاب الديني عن كل صور التفريط والانفلات.

المبحث الثالث: أسباب وآثار الابتعاد عن توسط الخطاب الديني، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أسباب ابتعاد الخطاب الديني عن التوسط.

المطلب الثاني: آثار ابتعاد الخطاب الديني عن التوسط.

المطلب الثالث: العودة إلى توسط الخطاب الديني لتوطيد السلم الاجتماعي.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث.

المبحث الأول

معنى التوسط ولزومه في الخطاب الديني لتحقيق السلم الاجتماعي

يتناول هذا المبحث بيان المقصود بكل من: التوسط، والخطاب الديني، والسلم الاجتماعي، ويوضح أن السلم الاجتماعي لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان الخطاب الديني في المجتمع يتسم بالتوسط، وقد تم تقسيم المبحث إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى التوسط لغة واصطلاحاً

يأتي التوسط في اللغة بمعنى: الاعتدال وأخذ الوسط، فوسط الشيء: ما بين طرفيه، والوسط من كل شيء: أعدله¹، وقد يكون لفظ الوسط ظرفاً أو اسماً أو صفة: فيكون ظرفاً إذا صلح فيه معنى (بَيْنَ)، وعندئذ يأتي بتسكين السين (وَسَطَ)، كقولنا: جلست وَسَطَ القوم: أي بينهم، أما إن لم يصلح فيه (بَيْنَ) فهو (وَسَطَ) بفتح السين؛ لأنه اسم، كقولنا: جلست وَسَطَ الدار².

وقد يأتي صفة من جهة أن أوسط الشيء أفضله وأعدله وخياره، كقولنا: وَسَطَ الرجل قومه وفيهم وساطة: توسط في الحق والخير والعدل³، وعندئذ يكون الوَسَطَ عكس الطَّرَفِ، والتوسط عكس التطرف؛ ولذلك يُدْم من يعبد الله على حرف؛ لأنه يكون "على شك"، فهو على طَرَفٍ من دينه، غير متوسط فيه ولا متمكن، فلما كان وَسَطَ الشيء أفضله وأعدله جاز أن يقع صفة⁴.

أما التوسط في الاصطلاح فلا يخرج عن معناه اللغوي، فهو يعني أن يبقى الإنسان في حالة الاعتدال المحمودة التي أمره الله عز وجل بها، والتي يدركها عقله بالفطرة السليمة وتبعده عن الميل إلى جانبي الإفراط والتفريط⁵، ولذلك فقد أخرج البخاري في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في معنى قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً)⁶: أن الوسط هو العدل⁷، ويرى العيني أن الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء الذي هو بين الطرفين، فهو بين طرفي الإفراط والتفريط، وقد وصفهم الله عز وجل بذلك لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو ولا أهل تقصير فيه، وقيل للعدل والخيار: وسط؛ لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل، بينما الأوساط محفوظة⁸.

¹ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة (و س ط)، ص 692.

² ابن منظور، لسان العرب، مادة (و س ط)، 427/7.

³ الفيومي، المصباح المنير، مادة (و س ط)، 658/2.

⁴ ابن منظور، لسان العرب، مادة (و س ط)، 429/7.

⁵ الفرфор، الوسطية في الإسلام، ص 27. المرصفي، الكعبة مركز العالم، ص 59.

⁶ سورة البقرة، آية 143.

⁷ البخاري، صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) حديث رقم (448).

⁸ العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 95/18.

ولعل من أبرز العبارات التي تعد قاعدة في بيان معنى التوسط ما ورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: " خير هذه الأمة النمط الأوسط، يلحق بهم التالي، ويرجع إليهم الغالي"¹.

فالتوسط بهذا المعنى هو المنهج الذي أنعم الله عز وجل به على عباده المؤمنين وسماه(الصراف المستقيم) ليميزه عن مناهج (المغضوب عليهم) و (الضالين) التي لا تخلو من إفراط و غلو، أو من تفريط وانفلات².

ولا يخرج استعمال العلماء لكلمة التوسط عن هذا المعنى، وخاصة في عباراتهم المتعلقة بمقاصد التشريع الإسلامي، وبيان يسر الشريعة الإسلامية وصلاحها لكل زمان ومكان، فقد بين الشاطبي أن مقصد الشارع من المكلف هو الحمل على التوسط والاعتدال في الأمور، حتى تكون جارية على وجه لا يميل إلى إفراط ولا تفريط، وقال: " فإذا نظرت في كلية شرعية، فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلاً إلى جهة طرف من الأطراف، فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر، فطرف التشديد_ وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والجزر_ يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين، وطرف التخفيف_ وعامة ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص _ يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك، رأيت التوسط لائحاً ومسلك الاعتدال واضحاً، وهو الأصل الذي يرجع إليه، والمعقل الذي يلجأ إليه، وعلى هذا إذا رأيت في النقل من المعترضين في الدين من مال عن التوسط، فاعلم أن ذلك مراعاة منه لطرف واقع أو متوقع في الجهة الأخرى"³.

كما بين أن الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية التوسط والاعتدال، وتدخل تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال، وقال: " فإن كان التشريع لأجل انحراف المكلف أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط إلى أحد الطرفين، كان التشريع راداً إلى الوسط الأعدل، لكن على وجه يميل فيه إلى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه، فعل الطبيب الرفيق يحمل المريض على ما فيه صلاحه بحسب حاله وعادته وقوة مرضه وضعفه، حتى إذا استقلت صحته هياً له طريقاً في التدبير وسطاً لا ثقاً به في جميع أحواله"⁴.

¹ ابن أبي شيبعة، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، 100/7، رقم (34498)، كتاب الزهد، باب كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه. السيوطي، جامع الأحاديث، مسند علي بن أبي طالب، رقم (33296). اللالكاني، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، 1480/8، باب جماع فضائل الصحابة، رقم (2679).

² القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، ص24.

³ الشاطبي، الموافقات، 286/2.

⁴ المرجع نفسه، 279/2.

أما ابن عاشور فقد بين أن التوسط والاعتدال هو قوام الصفات الفاضلة، وبعد أن أورد الأدلة التي تنهى عن اتباع الإفراط أو التفريط في الأخلاق لأنهما من اتباع الهوى، قال: "فالتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط هو منبع الكمالات"¹.

المطلب الثاني: المقصود بالخطاب الديني وتوسطه

الخطاب الديني بهذا التركيب الإضافي مصطلح جديد، وليس من المصطلحات التي حدد الإسلام وضعها ومعناها الشرعي، أما كلمة الخطاب في اللغة فمعناها: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً²، ورجل خطيب: حسن الخطبة³، والخطبة: اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب، وقد خطب على المنبر خطبة وخطابة⁴.

والخطاب اصطلاحاً هو: "اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو مُتَهَيِّئٌ لفهمه"⁵ وعلى هذا يكون معنى الخطاب هو: إيصال الأفكار إلى الناس بواسطة الكلام المفهوم، ولذلك جاء تعريف الحكم الشرعي بأنه: خطاب الشارع المتعلق بأفعال المكلفين طلباً أو تخييراً أو وضعاً⁶.

والخطاب الديني هو المنسوب إلى الدين، وهو وسيلة توصيل المعنى الذي قصده الشارع إلى المخاطب به، وبما أن المقصود هنا هو الدين الإسلامي، فيكون معنى الخطاب الإسلامي هو إيصال أفكار الإسلام وأحكامه إلى الناس، وتبليغهم الرسالة التي أوحى الله عز وجل بها إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لتنظيم علاقات البشر مع خالقهم ومع غيرهم ومع أنفسهم.

والخطاب الإسلامي متوسط معتدل في أصله، فالتوسط من خصائصه ومقاصده، ولسنا نحن الذين نضفي عليه التوسط، فدين الله عز وجل لا يحتاج إلى أحد ليوسطه أو يعدله، والأصل أن يغني وضوح معنى التوسط في الخطاب الديني عن تعريفه، ولكن محاولات الاستيلاء عليه تحتم علينا تعريفه؛ لأنها حولته إلى مصطلح ذي دلالات متعددة لتجاذب عدة أطراف له، بل وصل الأمر إلى تحويله إلى مسكن مؤقت لمعالجة قضايا آنية، وتوظيفها لتحقيق مصالح فئة أو جهة معينة، أما عند من يتأثر بالسنوات الخداعات التي تتبدل فيها معاني المصطلحات، فقد تم تبديل معنى التوسط إلى معاني البساطة والتخاذل واللين والتنازل، ليقدم الراغبين بالاستسلام بثمن بخس، فكان لا بد من تعريفه حتى لا يكون توسط اللين والتخاذل الذي يتطلع إليه الأعداء، أو خطاب البساطة والتنازل الذي يدندن حوله الرؤساء⁷.

¹ ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص184.

² ابن منظور، لسان العرب، مادة خطب، 361/1.

³ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة خطب، ص81.

⁴ الرازي، مختار الصحاح، مادة خطب، ص92.

⁵ الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام، 95/1.

⁶ خلاف، علم أصول الفقه، ص100. الجديع، تيسير علم أصول الفقه، ص17.

⁷ الجحبي، الوسطية الطريق إلى الغد، ص63.

والخطاب الديني قد يطلق ويراد به الأحكام الشرعية التي هي خطاب الشارع نفسه، وقد يطلق ويراد به سلوك الخطيب ووسائله وأساليبه لتوصيل تلك الأحكام، فإذا كان بمعنى الأحكام الشرعية التي خاطب الشارع بها المكلفين، فهو خطاب يمتاز بالتوسط في أصله، ولا يقبل من أحد أن يغيره بحجة إضفاء التوسط عليه، فيكون ما بيّنه الشارع في هذه الحالة هو التوسط بعينه¹، وأي تغيير فيه يكون من نزعات الشيطان التي تبعده عن التوسط إلى الإفراط أو التفريط، فإنه " ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة وهي الإفراط " ²، ودين الله عز وجل وسط بين الجافي عنه والغالي فيه، فميزان التوسط المقصود بهذا المعنى هو نصوص الكتاب والسنة والأدلة الشرعية المعتبرة، فهي المختبر الذي نميز من خلاله بين التوسط الذي جاء به الإسلام، والتوسط الذي يقود إلى الانهزام، فلا توسط خارج معنى النصوص والأدلة الشرعية، فالشريعة متوسطة منذ أن نزلت من السماء.

أما إذا كان الخطاب الديني بمعنى سلوك الخطيب والوسائل والأساليب التي يستخدمها لإيصال الأفكار والأحكام الشرعية إلى الآخرين، فعندئذ تبرز الدعوة إلى التوسط والمجادلة بالتي هي أحسن، ويكون الإخلاص وحده غير كاف لأداء وظيفة الدعوة، بل يلزم معه العلم وفهم مقاصد الشريعة والإحاطة بواقع الناس وحاجاتهم.

وهنا يكون معنى التوسط الذي يجب أن يقوم عليه الخطاب الديني هو أن يلتزم صاحبه بالأسلوب المهدب والخلق الرفيع والتواضع الجم والفهم الصحيح للنصوص والبعد عن التعصب والعنصرية، فيكون التوسط بهذا المعنى عكس التطرف، حيث يطلق التطرف الديني على القائل المخالف للشرع؛ لأنه يفهم النصوص فهماً بعيداً عن مقصود الشارع وروح الإسلام، مما يوصله إلى إحدى النتيجتين المذمومتين، وهما الإفراط أو التفريط، ولذلك عندما ذكر الشاطبي آداب المفتي أوجب عليه أن يحمل الناس على التوسط والاعتدال، فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال، وبين أن هذا التوسط هو الصراط المستقيم الذي جاءت به الشريعة فقال: " فعلى هذا يكون الميل إلى الرخص في الفتيا بإطلاق مضادا للمشي على التوسط، كما أن الميل إلى التشديد مضاد له أيضا، وربما فهم بعض الناس أن ترك الترخص تشديد، فلا يجعل بينهما وسطا، وهذا غلط، والوسط هو معظم الشريعة وأم الكتاب، ومن تأمل موارد الأحكام بالاستقراء عرف ذلك " ³.

فالخطاب الديني بكل صورته هو وسيلة إيصال الشريعة والدين للناس، ولذلك يجب أن يقوم على التوسط وأن يبتعد عن التطرف، ولا يصح أن يتسم بأنه انفعالي متشدد، ولا بأنه انفتاحي متسيب،

¹ آل الشيخ، الوسطية والاعتدال وأثرهما على حياة المسلمين، ص 18.

² ابن القيم، مدارج السالكين، 108/2.

³ الشاطبي، الموافقات، 278/5.

فايصال الدين يجب أن يكون وعاؤه _ وهو الخطاب _ متوسطاً معتدلاً بعيداً عن الغلو والإفراط، وعن التفريط والانفلات، كما يجب أن يراعي المتحدث أحوال المخاطبين، وأن يتجنب الإسراف في فتح باب الأمل في النجاح والنصر ولو دون عمل، أو باب اليأس والقنوط حتى مع العمل.

المطلب الثالث: معنى السلم الاجتماعي وعلاقته بتوسط الخطاب الديني

يأتي السلم في اللغة بمعنى الصلح والأمان والمسالمة¹، وهو نقيض الحرب²، والسلام: السلامة³، ومنه قيل للجنة: دار السلام؛ لأنها دار السلامة من الآفات، أما في الدنيا، فالسلام هو أمان الله عز وجل في الأرض، والسلامة والنجاة من الفتن⁴.

وبما أن كل مجتمع يتكون من مجموعة من البشر؛ فإن السلم بين أفراد المجتمع يعني: أن يسلم ويأمن كل واحد من أن يناله ألم من الآخر⁵، ويتحقق هذا السلم عند وجود المظاهر الإيجابية في المجتمع، مثل الهدوء والاستقرار والتفاهم والاتفاق، وعند غياب المظاهر السلبية، مثل التنازع والتحارب والعنف والصراع.

فالسلم الاجتماعي هو عبارة عن حالة الوفاق والوئام والتفاهم والانسجام داخل المجتمع نفسه، حيث إن سلامة العلاقات الداخلية بين أبناء المجتمع علامة على استقرار المجتمع وإمكانية نهوضه. وقد بين مالك بن نبي أن وضع النهوض في المجتمع يكون عندما تصل فيه شبكة العلاقات الاجتماعية إلى قمة كثافتها، فيصبح المجتمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وهذا ما حصل في الدولة الإسلامية في عهد النبوة، فشبكة العلاقات الاجتماعية هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده، ومن أجل ذلك كان أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هو المؤاخاة التي ربطت بين الأنصار والمهاجرين، ثم الميثاق الذي وضع وحدد العلاقات مع سائر سكان المدينة المنورة⁶.

وكما كانت العلاقات الداخلية السليمة هي نقطة الانطلاق نحو ازدهار الدولة الإسلامية وتقدمها، فإن تدهور تلك العلاقات كان مؤشر التراجع والانحطاط بسبب ما أثاره الأعداء من صراعات، فلما كان صفاء المجتمع من العداوات وخلوه من الصراعات يجعله مهيناً للانتصار والتعاون والانطلاق، ويحفظ قوته من الفشل والهدر والضياع، فقد كان من الطبيعي أن يسعى الأعداء لتمزيق وحدة المجتمع وإثارة العداوات والصراعات بين أفرادها وفئاته، ولذلك فقد ركز القرآن الكريم على قضية الوحدة والوئام وعدم التفرق والتنازع الذي يؤدي إلى الفشل، فقال تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً

¹ الجوهري، الصحاح، مادة سلم، 1951/5.

² الزبيدي، تاج العروس، مادة حرب، 249/2، مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، باب السين، 446/1.

³ الرازي، مختار الصحاح، مادة سلم، ص153.

⁴ ابن منظور، لسان العرب، مادة سلم، 291/12.

⁵ أبو جيب، القاموس الفقهي، ص181.

⁶ ابن نبي، سلسلة مشكلات الحضارة _ ميلاد مجتمع، ص103.

ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ¹،
وقال: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) ²، وقال: (إن هذه أمتكم
أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) ³، إلى غير ذلك من الإرشادات والتوجيهات التي تجعل الوحدة
والاتفاق في مقدمة الفرائض والواجبات.

وهناك تعاليم أخرى تشكل رؤية الإسلام لترسيخ السلم الاجتماعي وحمايته وتنميته عن طريق الدعوة
إلى التزام التوسط في الخطاب الديني والأمر بحسن التعامل مع المخاطبين ورعاية مشاعرهم
واحترام أحاسيسهم، كقوله تعالى: (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم) ⁴،
وقوله: (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) ⁵، وقوله: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة
والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) ⁶، فعلى الخطيب اتباع هذه الحكمة التي رسمها القرآن
الكريم، ولعل من الحكمة " التركيز على القواسم المشتركة، لا على نقاط الاختلاف، فإن وجود أرض
مشتركة بين الناس يساعد على جدية الحوار وجدواه، وإمكان الانتفاع بما هو متفق عليه، وليس من
الحكمة دوام التطرق إلى نقاط الخلاف وإثارتها؛ لأن ذلك يزيد في الفرقة والصراع " ⁷، وكذلك ليس
من الحكمة الاعتقاد باحتكار الفهم الأرجح في حالات الاختلاف؛ لأنه ينجم عن ذلك الإقصاء لأي
اجتهاد مخالف، ومحاكمة قائله ونحره ماديا أو معنويا لأنفه الأسباب، وبغير موازين الحق والعدل.
فالأصل أن يحمل الخطاب الديني خصائص الإسلام، فيكون توسطه بمثابة الوقاية الحامية من كل
مظاهر الاحتقان والقمع والكراهية والحقد بين الناس، وبمثابة العلاج القوي والفاعل لكل عوامل
التفريق والتنازع بين أفراد المجتمع وشرائحه ومكوناته، أما الخطاب الذي يضخم نقاط الاختلاف،
ويقوم بالتحريض تحت عناوين المذهبية أو الحزبية أو القبلية، ويدعو إلى القمع أو اتباع الهوى أو
مصادرة الرأي، فهو ليس من الإسلام في شيء ⁸.

فالخطاب الإسلامي الصحيح هو الذي يتسم بالتوسط، ويعمل على ترسيخ السلم الاجتماعي في
المجتمع، وهي مهمة قد تكون صعبة في زمن عرّ فيه التوافق، وحل محله التنازع، فوجب على دعاة

¹ سورة آل عمران، آية 103.

² سورة الأنفال، آية 46.

³ سورة الأنبياء، آية 92.

⁴ سورة الإسراء، آية 53.

⁵ سورة العنكبوت، آية 46.

⁶ سورة النحل، آية 125.

⁷ الشاعر، خطبة الجمعة وشروط نجاحها في ظل المتغيرات المعاصرة، منشور في مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)
مجلد 22(3)، 2008م، ص 978.

⁸ الجحبي، الوسطية الطريق إلى الغد، ص 160.

الإسلام أن ينهضوا لمواجهة ذلك بإصلاح ما فسد، وأن يعملوا لاستعادة السلم الاجتماعي، باعتباره المؤشر الأول على استقرار الحياة العامة وقدرة المجتمع على النهوض والتقدم والتطور الإيجابي¹. فاستقرار المجتمعات ضروري لنهضتها، ولا يتحقق الاستقرار إلا بوجود السلم الاجتماعي، ولا يوجد السلم الاجتماعي إلا في ظل التوسط والاعتدال في كل جوانب الحياة والتي منها جانب الخطاب الديني².

المبحث الثاني

لا إفراط ولا تفريط في الخطاب الديني

منهج التوسط الذي يقوم عليه الإسلام سماه الله عز وجل " الصراط المستقيم "؛ فهو المنهج المتوسط المعتدل الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف³، وهو لا يقتصر على الأمور الباطنة، بل يكون أيضاً في جميع الأفعال والأقوال الظاهرة⁴، ومنها الخطاب الديني الذي يجب أن يتسم بالتوسط، ويتعد عن الإفراط أو التفريط⁵، فهو خطاب الخير والعدل لتوسطه بين الطرفين المذمومين، ولأن الآفات إنما تنتشر إلى الأطراف، بينما الأوساط محمية بأطرافها، فخير الأمور أوساطها⁶. وهذا المبحث يبين في مطلبه الأول أن الخطاب الديني يجب أن يخلو من كل مظاهر الإفراط والغلو، ويتناول في المطلب الثاني ابتعاد الخطاب الديني عن كل صور التفريط والانفلات.

المطلب الأول: خلو الخطاب الديني من كل مظاهر الإفراط والغلو

الإفراط لغة: الإسراف والاعتداء والإكثار ومجاوزة الحد⁷، ويستعمل في تجاوز الحد من جانب الزيادة والمبالغة في قول أو فعل⁸، وكذلك الغلو يأتي بمعنى التشدد والتصلب ومجاوزة الحد، وقد غالى في الأمر غلواً ومغالاة: بالغ فيه حتى جاوز الحد والحسن⁹. وعلى هذا يكون معنى الإفراط والغلو في الخطاب الديني: هو خروج ذلك الخطاب عن توسطه إلى المبالغة الزائدة، ومجاوزة حد الحق بتحميل الأقوال والأفعال فوق ما تحتل، أو بأن يزداد في الشيء في حمده أو ذمه على ما يستحق¹¹.

ولما كان أهل الكتاب أكثر غلواً من غيرهم، فقد جاء بحقهم النهي عن الغلو في أكثر من موضع في القرآن الكريم، فقال تعالى: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق)¹، وقال:

¹ <http://www.alamatonline.net/13.php?id=13717>

² <http://alsayed-alnabhan.com/page55.php?actio>

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 1/149.

⁴ ابن تيمية، اقتضاء الطريق المستقيم، 1/92.

⁵ الميداني، الوسطية في الإسلام، ص82.

⁶ ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ص188.

⁷ ابن منظور، لسان العرب، مادة فرط، 7/369. الزبيدي، تاج العروس، مادة فرط، 19/528.

⁸ الجرجاني، التعريفات، ص32. قلعجي، معجم لغة الفقهاء، 1/307.

⁹ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص1318. مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، 2/660.

¹⁰

¹¹ ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، 1/328. نوح، آفات على الطريق، 3/194.

قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل)²، وفي هذا الخطاب تحذير للمسلمين أن يسيروا على نهجهم فيحدثوا في الدين ما ليس منه، ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الغلو فقال: (إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)³.

وهناك مظاهر عديدة للغلو والإفراط الذي لم يأذن به الله عز وجل ولا رسوله صلى الله عليه وسلم، يجمعها أنها خروج عن منهج التوسط، ومن هذه المظاهر: التعصب للرأي وعدم الاعتراف بالرأي الآخر، فإذا كان الرأي الذي يتبناه الخطيب أو الداعية من الأحكام التي تقبل الاجتهاد وتتعدد فيها وجهات النظر، فلا يصح أن يتعصب لرأيه، بل يجب أن ينظر إلى رأيه على أنه صواب يحتمل الخطأ، وينظر إلى الرأي الآخر على أنه خطأ يحتمل الصواب، كما لا يصح التعصب للشيوخ، لأنه يفسد أحوال الشيوخ والتلاميذ معاً، فيجعل التلاميذ لا ينظرون إلى عيوب شيوخهم، بل يقدسونهم ويكرهون نظراءهم أو من هم أفضل منهم، ويجعل الشيوخ يستغلون ثقة تلاميذهم العمياء بهم، وقد ينحرفون بهم عن مرضاة الله إلى تحقيق مصالح أنفسهم⁴.

ومن مظاهر الإفراط والغلو أيضاً: الغلظة في المعاملة والخشونة في الأسلوب والتكبر على المخاطبين، فانه عز وجل يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك)⁵، وهذا يعني أن الغلظة في الخطاب الديني تبعد الناس عن الخطيب وتزيد من عوامل الفرقة بين أفراد المجتمع، والأصل أن يبذل الخطيب جهده للتقريب بين الناس ومعالجة عوامل الفرقة بين أفراد المجتمع وشرائحه ومكوناته السياسية والعرقية⁶.

ومن أبرز مظاهر الإفراط والغلو: سوء الظن بالآخرين وعدم التماس العذر لهم، فالخطاب الديني الصحيح يرفض التفتيش عن عيوب الآخرين، أو اتهامهم بسبب المخالفة في الرأي الاجتهادي⁷. ويكون علاج الغلو والإفراط بالعودة إلى الإسلام الحق ليكون منهج حياة ونجاة، فهو منهج التوسط والاعتدال الذي يجعل من الخطاب الديني عامل استقرار، فيجب على الدعاة أن يصححوا منهجهم ويُقَوِّموا أفكارهم حتى يعرفوا دينهم على بصيرة، ويجب على الناس فهم الأحكام من العلماء والفقهاء، وليس من الذين يتصدون للفتوى بغير علم⁸، وذلك حتى لا يتأثروا بما يسعى إليه دعاة الشر والفساد

¹ سورة النساء، آية 171.

² سورة المائدة، آية 77.

³ أخرجه النسائي في السنن الصغرى، كتاب مناسك الحج، باب النقاظ الحصى، 268/5، حديث رقم (3057)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، 177/5، حديث رقم (2144).

⁴ الميداني، الوسطية في الإسلام، ص186.

⁵ سورة آل عمران، آية 159.

⁶ الشاعر، خطبة الجمعة وشروط نجاحها، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، مجلد22(3)، ص978.

⁷ صبري، الوسطية في الفكر الإسلامي، ص90.

⁸ القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجود والتطرف، ص150.

من نشر للكراهية والحقء، وتضخيم لنقاط الاختلاف، واشتغال بالتعبئة والتحريض تحت عناوين الحزبية والمذهبية والقبلية والطائفية ونحو ذلك.

المطلب الثاني: ابتعاد الخطاب الديني عن كل صور التفريط والانفلات

إذا كان الإفراط يستعمل في تجاوز التوسط من جانب الزيادة والمبالغة، فإن التفريط يستعمل في تجاوز التوسط من جانب النقصان والتقصير¹، وقد فرط في الشيء تفريطاً: قصر وأظهر العجز فيه وضيعه حتى فات².

وانحراف الخطاب الديني من التوسط إلى طرف التفريط، له بواعث كثيرة، لعل من أخطرها: الجهل بالدين، وما يترتب عليه من فهم سقيم أو تطبيق خاطئ لأحكام الدين أو غفلة عن مقاصد التشريع الإسلامي³، فالجاهل يتأثر بما ينفثه دعاة الشر والفساد من تشكيك وتضليل بقصد إبعاد الناس عن منهج الله وصراطه المستقيم، كما يتأثر بما يسعى إليه الأعداء من تغيير وتبديل وتحريف في جوهر الإسلام، بقصد استهداف ثقافة الأمة، التي هي العمود الفقري لوجودها وبقائها. والخطاب الإسلامي الصحيح هو الذي يحافظ دائماً على توسطه، فلا يوغل في الانغلاق، ولا في الانفتاح والتحرر من كل القيود، ولا يصح أن يلوث هذا الخطاب بسلوكيات سيئة من بعض المنتمين إليه، إما بسبب خوفهم وضعف إيمانهم، أو بسبب كسلهم واستسلامهم للراحة، أو بسبب اتباعهم للشهوات والتوسع في المباحات⁴.

فالكسول وضعيف الإيمان يبدأ بالتقلت والتهرب من الالتزام بأحكام الإسلام، ثم يتغلب عليه الهوى فيتلاعب بأحكام الشرع، وتتحرك شهواته بالاتجاه المنحرف، فيفرط في الواجبات ويتحرر من القيود فيقع في المحرمات، وينسى ما قرره القرآن الكريم من أن العمل للأخرة أسمى وأثمن وأبقى من الإغراق في شهوات الدنيا: (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً)⁵.

ومن بواعث التفريط أيضاً: وساوس الشيطان التي تدفع الإنسان إلى التقصير في الدين، وإلى الانفلات من أحكامه بالتحايل والتهرب، فالشيطان هو عدو الإنسان الذي يقعد له الصراط المستقيم، ويأتيه من كل جهة وسبيل⁶.

وللتفريط والانفلات في الخطاب الديني صور عديدة، منها: التفريط في المفاهيم الدينية والأحكام الشرعية، وذلك عن طريق التلاعب بدلالات النصوص للتخفيف من درجة الحكم الشرعي الذي

¹ الجرجاني، التعريفات، ص32. قلجعي، معجم لغة الفقهاء، 1/138.

² ابن منظور، لسان العرب، مادة فرط، 369/7. الزبيدي، تاج العروس، مادة فرط، 19/532.

³ الميداني، الوسطية في الإسلام، ص84.

⁴ الجحى، الوسطية الطريق إلى الغد، ص162.

⁵ سورة الكهف، آية 46.

⁶ ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ص98.

يستفاد منها، أو التمسك بالآراء الاجتهادية الضعيفة التي تخالف اجتهاد الجمهور الراجح، أو تتبع الرخص في المذاهب للأخذ بأسهل الآراء لمجرد التناقل من التكاليف¹. ومن صور التفريط أيضاً: التقصير في حفظ النصوص وتبليغها، والتفريط في الولاء والانتصار لدين الله عز وجل، والتفريط في نصره المستضعفين من المسلمين، ومنها مودة أعداء الله ونصرتهم، وموالاته دول الشرك والكفر².

فالأصل في الخطاب الديني هو التوسط، وكل ما نقص عن ذلك كان تقصيراً وتهاوناً وتفريطاً وانفلاتاً³، وهو من التغيير الذي يستهدف ثقافة الأمة، ويبعدها عن الخيرية والاعتدال.

المبحث الثالث

أسباب وآثار الابتعاد عن توسط الخطاب الديني

ابتعاد الخطاب الديني عن التوسط له أسباب لا بد من معالجتها، وتترتب عليه آثار لا بد من التخلص منها من أجل العودة إلى الاستقرار وتحقيق السلم الاجتماعي في المجتمع، وليبيان ذلك تم تقسيم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: أسباب ابتعاد الخطاب الديني عن التوسط

يرجع الابتعاد عن التوسط في الخطاب الديني إلى أسباب متعددة، بعضها له علاقة بأعداء الإسلام وأساليبهم الشيطانية لتغيير الناس عن الدين، وبعضها له علاقة بالشخص نفسه، كجهله بحقيقة الدين، أو تعصبه واتباعه للأهواء أو لوساوس الشياطين.

أما عن الأسباب الخارجية التي تتعلق بأعداء الإسلام، فيلاحظ أن الخطاب الديني الحالي الذي يصفونه بأنه " متسم بالتشدد " هو في ذاته نتيجة لأسباب أخرى تتصل بالظلم والفساد وانحسار العدالة والهيمنة وغياب احترام كرامة الإنسان، وهذا يقتضي أن طريقة إعادة الخطاب الديني إلى توسطه تكون من خلال معالجة أسباب تشدده، وليس من خلال تغيير مضمونه الذي من شأنه أن يكثف من ضغوط الهيمنة والإحساس باستخفاف الغرب بكرامة العربي والمسلم⁴، وأما بالنسبة إلى الأسباب التي تتعلق بالشخص نفسه، وتؤدي إلى ابتعاد الخطاب الديني عن التوسط إلى طرف الإفراط أو طرف التفريط، فأخطرها الجهل بقواعد الشريعة الإسلامية ومقاصدها، وما يقبل وما لا يقبل الاجتهاد فيها. فالجهل إما أن يؤدي بصاحبه إلى الغلو والإفراط، وإما أن يؤدي به إلى التفريط والجفاء والتساهل في أمور الدين، حيث لا يستطيع الجاهل أن يربط بين الجزئيات والكلديات، ولا أن يحاكم الظنيات إلى القطعيات، كما لا يعرف من فنون التعارض والترجيح والدلالات ما يستطيع به الجمع بين

¹ الفرфор، الوسطية في الإسلام، ص120.

² صبري، الوسطية في الفكر الإسلامي، ص102.

³ الفرфор، الوسطية في الإسلام، ص122.

⁴ الصنقري، تطوير الخطاب الديني، ص7.

المختلفات¹، وإذا انتسب هذا الجاهل إلى الخطاب الإسلامي، فإنه سيدخل في أبواب الابتداع، والابتعاد عن التوسط، والإفتاء بغير علم، وهذا ما حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)²، فعندما يغيب العلماء الفقهاء يكثر الخطباء الجهلاء، وعندئذ يفقد المجتمع السلم والهناء، ويقع في النزاع والشقاء. ويُعد اتباع الأهواء والشهوات من أهم أسباب ابتعاد الخطاب الديني عن التوسط أيضاً، فمن يتحكم به هواه يخرج عن حد التوسط والاعتدال والصراف المستقيم، ويجره إلى أحد النقيضين المذمومين: إما الإفراط أو التفريط، ولذلك فقد حذر القرآن الكريم من اتباع الهوى فقال تعالى: (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)³، وقال: (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن)⁴، فلا يصح للخطيب أن يتخير من الأقوال ما يتناسب مع أهوائه ورغباته، أو ما يحقق أغراضه وشهواته، أو ما ينتصر به لمذهبه وجماعته؛ لأن ذلك يوقعه في التعصب المذموم الذي يبعده عن التوسط بعداً كبيراً، فالتعصب للمذاهب والطرائق والمشايخ، وتفضيل بعضها على بعض بالهوى والعصبية، كله من دعوى الجاهلية⁵.

المطلب الثاني: آثار ابتعاد الخطاب الديني عن التوسط

التزام التوسط في الخطاب الديني كفيل بإيجاد الشخصية المترنة المطمئنة المستقيمة القادرة على الأخذ بزمام الأمور دون اضطراب أو خوف، وهذا ما يؤدي إلى تحقيق السلم الاجتماعي في المجتمع.

أما ابتعاد الخطاب الديني عن التوسط، فإنه يؤدي إلى فقد الاتزان والاستقامة، ثم إلى الحرمان من السلم الاجتماعي بمقدار الابتعاد عن التوسط، فكلما اقترب الخطاب الديني من الأطراف زاد بعده عن التوسط، وبالتالي زاد ظهور أثره في الحرمان من السلم الاجتماعي، فاقترابه من طرف التفريط يؤدي إلى التقصير في معرفة الأحكام الشرعية وما يترتب عليها، واقترابه من طرف الإفراط يؤدي إلى الإحداث في الدين ما ليس منه والتجروء على الشريعة، وفي الحالتين يحصل التفرق والتوتر والتنازع الذي يؤدي إلى الفشل؛ لأن ابتعاد الخطاب الديني عن التوسط يجعله غير قادر على استيعاب أقرب الناس إليه، أو أكثرهم استعداداً للتجاوب معه، علاوة عن كسب الآخرين، وذلك بسبب التعصب المقيت الذي ذمه العلماء وحاربوه.

¹ القرضاوي، الصحة الإسلامية بين الجود والتطرف، ص 62.

² أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، 31/1، حديث رقم (100).

³ سورة ص، آية 26.

⁴ سورة المؤمنون، آية 71.

⁵ ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، 431/2.

قال الزرقاني: "واعلم أن هناك أفراداً بل أقواماً تعصبوا لآرائهم ومذاهبهم، وزعموا أن من خالف هذه الآراء والمذاهب كان مبتدعاً متبعاً لهواه ولو كان متأولاً تأويلاً سائغاً يتسع له الدليل والبرهان، كأن رأيهم ومذهبهم هو المقياس والميزان، أو كأنه الكتاب والسنة والإسلام، وهكذا استزلهم الشيطان وأعماهم الغرور، ولقد نجم عن هذه الغلطة الشنيعة أن تفرق كثير من المسلمين شيعاً وأحزاباً، وكانوا حرباً على بعضهم وأعداء، وغاب عنهم أن الكتاب والسنة والإسلام أوسع من مذاهبهم وآرائهم، وأن مذاهبهم وآراءهم أضيق من الكتاب والسنة والإسلام، وأن في ميدان الحنيفية السمحة متسعاً لحرية الأفكار واختلاف الأنظار ما دام الجميع معتصماً بحبل من الله"¹.

وقال الشوكاني: "والمتعصب وإن كان بصره صحيحاً، فبصيرته عمياء وأذنه عن سماع الحق صماء، يدفع الحق، وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق، غفلة منه وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح، وتلقي ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم، وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع، فإنه صار بها باب الحق مرتجأً، وطريق الإنصاف مستوعرة، والأمر لله سبحانه والهداية منه:

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى
ومنهج الحق له واضح"²

فابتعاد الخطاب الديني عن التوسط يؤدي إلى الإعراض عن منهج الإسلام في الاعتدال واليسر والرحمة، ثم إلى الصد عن سبيل الله وما ينتج عنه من التشويه والتفجير والفتنة، ثم إلى الضلال عن الحق وإضلال الناس وإيقاعهم في الشر والفساد والشدة، فإذا كان توسط الخطاب الديني هو الذي يحقق العدل والطمأنينة والسعادة والأمن والاستقرار والسلم الاجتماعي في المجتمع، فإن الابتعاد عن التوسط يحرم المجتمع من كل ذلك، ويبعد الأمة عن سمات الخيرية والبيئية والأمنية التي استحققتها بحكم توسط منهجها الذي أراده الله عز وجل لها بقوله: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً)³، وكذلك بقوله: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)⁴، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالطريقة الصحيحة، هو سبب تحصيل سعادة الدنيا والآخرة للناس، ولذلك فقد قال أبو هريرة: خير أمة أخرجت للناس تعني: "خير الناس للناس"⁵.

¹ الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، 35/2.

² الشوكاني، فتح القدير، 277/2.

³ سورة البقرة، آية 143.

⁴ سورة آل عمران، آية 110.

⁵ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب "كنتم خير أمة" 37/6، حديث رقم (4557).

المطلب الثالث: العودة إلى توسط الخطاب الديني لتوطيد السلم الاجتماعي

إذا كان القصد من مشروع عودة الخطاب الديني إلى توسطه هو تحقيق السلم الاجتماعي في المجتمع، فالأصوب والأسلم هو منهج معالجة الأسباب، وليس منهج التركيز على الآثار، فالعودة إلى توسط الخطاب الديني تكون بمعالجة أسباب ابتعاد ذلك الخطاب عن التوسط؛ لأن معالجة الأسباب هي في حد ذاتها وقاية من الآثار والنتائج السيئة التي تترتب على الابتعاد عن التوسط، وتؤدي إلى حرمان المجتمع من السلم الاجتماعي وإيقاعه في التفرق والتنازع والفسل.

فمعالجة الأسباب تؤدي إلى العودة للتوسط الذي يحقق السلم الاجتماعي، ويُنهي التفرق والتنازع والافتتال، ويحمي المجتمع من الهلاك والفسل والدمار.

وهناك من التدابير والطرق ما يصلح لمعالجة أسباب الابتعاد بشكل عام، إضافة إلى طرق خاصة لمعالجة كل سبب بعينه.

فمن الطرق والتدابير العامة التي من شأنها إعادة الخطاب الديني إلى التوسط: كشف مخططات الأعداء، وعدم الانخداع بأفكارهم وأساليبهم لتنتفیر الناس عن الدين، وكذلك عدم التأثر بما يتصل بأفعالهم من ظلم وفساد وهيمنة واستخفاف بكرامة الإنسان، وعدم التعامل مع هذه الأساليب والأفعال بمنهج معالجة الخطأ بالخطأ، بل يعالج الخطأ بالصواب وبالإصرار على سمة التوسط، ولا يصح العلاج بردة الفعل التي تبعدنا عن التوسط نحو الإفراط والغلو الذي يناقض مقصود الشارع في اليسر والتيسير، ويؤدي إلى إعنات الناس والتضييق عليهم¹، وفي نفس الوقت لا يصح العلاج بالخروج عن التوسط نحو طرف التفريط والتميع والتسيب والتحريف في منهج الإسلام لإرضاء الأعداء أو التوافق مع طرحهم.

بل يجب علينا الاعتزاز بانتمائنا للإسلام كمنهج حياة متكامل بصبغته الربانية، والالتزام بهذا المنهج في شتى جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية²، كما يجب علينا نشر التوعية والتثقيف بين الناس وتعريفهم أن الإسلام جاء موافقاً للفترة، ويجب دوام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالطريقة الصحيحة، أما الذين يخوضون في كلام التشكيك والتشويه والطعن والتكفير، فإن استطاع المسلم أن يقيم الحجة عليهم ويجادلهم بالحسنى فعليه أن يفعل، وإلا فيجب عليه الإعراض عنهم ومفارقتهم، لقوله تعالى: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره)³.

¹ اللويح، مشكلة الغلو في العصر الحاضر، 3/978.

² القرضاوي، الصحة الإسلامية بين الجود والتطرف، ص131.

³ سورة الأنعام، آية 68.

كما يجب على الخطباء والدعاة استشعار مخافة الله عز وجل، وأخذ الناس بالرفق وعدم الاستعلاء عليهم، ويجب أن يحترم كل صاحب مذهب أو حزب رأي المذهب أو الحزب الآخر دون تجريح له أو انتقاص، خاصة مع تعدد الفصائل في الساحة وحمية الاختلاف في تكيف الواقع الذي يترتب عليه الحكم.

أما بالنسبة إلى الطرق والتدابير الخاصة التي من شأنها إعادة الخطاب الديني إلى التوسط، فنجد أن كل سبب من أسباب الابتعاد عن التوسط له من الطرق والتدابير ما يصلح لمعالجته بعينه، فسبب الجهل مثلاً يعالج بتلقي العلم والمعرفة من المصادر المعتبرة وبالطريقة الصحيحة، وسبب اتباع الهوى يعالج بالإخلاص لله وحده ومجاهدة النفس حتى يخرج المكلف عن اتباع هواه ليكون عبداً لله¹. وهكذا نجد أن منهج معالجة الأسباب هو الذي يُعيد الخطاب الديني إلى التوسط والاعتدال، وبقي المجتمع من التفريط والتسيب والانحلال، وكذلك من الإفراط والتنازع والافتتال، ويؤدي بالتالي إلى تحقيق السلم الاجتماعي وحماية المجتمع من الهلاك والفشل والدمار.

الخاتمة

- يمكن تلخيص أهم النتائج التي تم التوصل إليها بعد كتابة هذا البحث، وذلك من خلال النقاط الآتية:
- (1) التوسط يعني أن يبقى الإنسان في حالة الاعتدال المحمودة التي أمره الله عز وجل بها، والتي يُدركها عقله بالفطرة السليمة وتُبعده عن الميل إلى جانبي الإفراط والتفريط.
 - (2) الخطاب الإسلامي متوسط معتدل في أصله، فالتوسط من خصائصه ومقاصده، ولسنا نحن الذين نضفي عليه التوسط، فدين الله عز وجل لا يحتاج إلى أحد ليوسطه أو يعدله.
 - (3) السلم الاجتماعي هو عبارة عن حالة الوفاق والوئام والتفاهم والانسجام داخل المجتمع نفسه، حيث إن سلامة العلاقات الداخلية بين أبناء المجتمع علامة على استقرار المجتمع وإمكانية نهوضه.
 - (4) الخطاب الإسلامي الصحيح هو الذي يحافظ دائماً على توسطه، فلا يوغل في الغلو والانغلاق، ولا في الانفتاح والتحرر من كل القيود، ولا يصح أن يُلَوَّث هذا الخطاب بسلوكيات سيئة من بعض المنتمين إليه مهما كانت الأسباب، فلا يصح معالجة الخطأ بالخطأ.
 - (5) العلاقات الداخلية السليمة في المجتمع هي نقطة الانطلاق نحو التقدم والازدهار، وتدهور تلك العلاقات هو مؤشر التراجع والانحطاط، ولذلك فمن الطبيعي أن يسعى الأعداء لتمزيق وحدة المجتمع وإثارة العداوات والصراعات بين أفراده وفصائله وفئاته.
 - (6) ابتعاد الخطاب الديني عن التوسط له أسباب متعددة، وتترتب عليه آثار مختلفة، ومنهج معالجة الأسباب هو الذي يُعيد الخطاب الديني إلى التوسط والاعتدال، وبقي المجتمع من التفريط والتسيب والانحلال، وكذلك من الإفراط والتنازع والافتتال، ويؤدي بالتالي إلى تحقيق السلم الاجتماعي وحماية المجتمع من الهلاك والفشل والدمار.

¹ الشاطبي، الموافقات، 2/264.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- آل الشيخ، صالح بن عبد العزيز، الوسطية والاعتدال وأثرهما على حياة المسلمين، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية، الرياض _ المملكة العربية السعودية، ط 1.
- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1415هـ .
- الأمدي، أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي، الإحكام في أصول الأحكام، المحقق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت _ لبنان، ط 1.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي، صحيح البخاري، المحقق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط 1، 1422هـ .
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، المحقق: ناصر بن عبد الكريم العقل، مكتبة الرشيد، الرياض، ط 8، 1421هـ .
- الجديع، عبد الله بن يوسف بن يعقوب اليعقوب العنزي، تيسير علم أصول الفقه، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت _ لبنان، ط 1، 1418هـ ، 1997م .
- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف، كتاب التعريفات، نشر دار الكتب العلمية، بيروت _ لبنان، ط 1، 1403هـ ، 1983م .
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المحقق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت _ لبنان، ط 4، 1407هـ ، 1987م.
- أبو جيب، سعدي، القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، دار الفكر، دمشق، ط 2، 1408هـ .
- خلاف، عبد الوهاب، علم أصول الفقه، دار القلم، ط 8 .
- الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، مختار الصحاح، المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، ط 5، 1420هـ .
- الزبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- الزرقاني، محمد بن عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط 5 .
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، جامع الأحاديث، ضبط نصوصه وخرج أحاديثه: فريق بإشراف علي جمعة، مفتي الديار المصرية .
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، الموافقات في أصول الشريعة، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط 1، 1417هـ ، 1997م .
- الشاعر، ناصر الدين، خطبة الجمعة وشروط نجاحها في ظل المتغيرات المعاصرة، بحث منشور في مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، مجلد 22(3)، 2008م .
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليميني، فتح القدير، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، دمشق، ط 1، 1414هـ .
- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، المحقق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط 1، 1409هـ .
- صبري، أريج إبراهيم سعيد، الوسطية في الفكر الإسلامي، رسالة ماجستير، جامعة القدس، فلسطين، 1425هـ ، 2004م .

- الصنقري، نصر بن محمد بن رواق، تطوير الخطاب الديني، دار الإيمان، الإسكندرية، ط 1 .
- ابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق ودراسة: محمد الطاهر الميساوي، البصائر للإنتاج العلمي، ط 1 ، 1418هـ ، 1998م .
- العيني، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى الحنفي، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت _ لبنان .
- الفرфор، محمد عبد اللطيف، الوسطية في الإسلام، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1 ، 1414هـ ، 1993م .
- الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت _ لبنان، ط 8 ، 1426هـ ، 2005م .
- الفيومي، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الحموي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت _ لبنان .
- القرضاوي، يوسف، الصحة الإسلامية بين الجحود والتطرف، مؤسسة الرسالة، بيروت _ لبنان، ط 6 ، 1416هـ ، 1996م .
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، مطبعة دار الكتب المصرية ودار القلم، ط 3 ، 1386هـ .
- قلنجي، محمد رواس قلنجي وحامد صادق قنبيي، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2 ، 1408هـ ، 1988م .
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، المحقق: مجدي فتحي السيد، دار الحرمين للطباعة ودار الحديث، القاهرة.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت _ لبنان، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط 7 ، 1415هـ .
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت _ لبنان .
- اللالكائي، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، المحقق: أحمد بن سعد الغامدي، دار طيبة، السعودية، ط 8 ، 1423هـ .
- اللويحق، عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مشكلة الغلو في العصر الحاضر: الأسباب والآثار والعلاج، ط 1 ، 1419هـ ، 1998م .
- المرصفي، سعد المرصفي، الكعبة مركز العالم، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 2 ، 1421هـ ، 2000م .
- مصطفى وآخرون، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر: دار الدعوة .
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن علي الأنصاري، لسان العرب، دار صادر، بيروت _ لبنان، ط 3 ، 1414هـ .
- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، الوسطية في الإسلام، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت _ لبنان، ط 1 ، 1461هـ .

- ابن نبي، مالك، سلسلة مشكلات الحضارة _ ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الإنشاء للطباعة والنشر، طرابلس _ لبنان، توزيع دار الفكر، دمشق _ سوريا، ط 2 ، 1394هـ ، 1974م .
- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، المجتبى من السنن (السنن الصغرى)، المحقق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب _ سوريا، ط 2 ، 1406هـ ، 1986م .
- نوح، السيد محمد، آفات على الطريق، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط13، 1415هـ .
- يحيى، عبد الله بن عبد العزيز، الوسطية الطريق إلى الغد، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط1 ، 1429هـ ، 2008م .
- <http://www.alamatonline.net/13.php?id=13717>
- <http://alsayed-alnabhan.com/page55.php?actio>